

تقاطبات المكان وأنسنته وتغريبته وعلاقتها بالشخصية في رواية

(درب الزعفران) لحسن جاسم الموسوي

حيدر عباس عبد فياض

أ . د خالد محمد صالح

جامعة ميسان / كلية التربية/ قسم اللغة العربية

الملخص

يهدف هذا البحث الى الكشف عن التقاطبات المكانية التي حملها نص الرواية (درب الزعفران) والذي اشتمل على مجموعة من الأمكنة التي مثلت بدورها أماكن مختلفة في دلالتها ، وما أنتجه من تضادات مكانية أضفت على المكان الروائي جمالية واضحة أثرت في ظهور الشخصيات ودورها في الأحداث ، فالتقاطبات المكانية أداة تميز أنواع الأمكنة ، حيث يستدل القارئ من خلالها الى تشخيص أنواع مكانية مختلفة ، وكذلك لها دور أساسي في تحليل النصوص الروائية ، كما وركز البحث على أنسنه المكان التي مثلت علاقات جديدة حولت المكان من فضاء مجرد يحوي الأحداث الى كائن واع يدرك ما حوله .

Abstract

The spatial polarities carried by the text to the novel (saffron trail) which included a range of possibilities that contrasts a dded to the narr ative space a clear aesthetic that influenced the appearance of the chara cters and their role in the events . The spatial interpolations are a tool for the differentiation of the types of places . An a ttempted , conscious object .

الكلمات المفتاحية : التقاطبات ، الانسنة ، التغريبة ، المكان ، الشخصية

المقدمة :

التقاطب مفهوم منهجي يعنى بتصنيف المكان ودراسته و قد شهد مفهوم التقاطب المكاني تطوراً مهماً في المناهج النقدية الحديثة خصوصاً الظاهرانية منها وبعد كتاب (جماليات المكان ، لغاستون باشلار) من أولى الدراسات المهمة التي تناولت مفهوم التقاطب المكاني ونبته له واستثمرته في تفسير أنواع وحالات الارتباط النفسي بالمكان وكذلك الوقوف عند الدلالات التي يتركها في نفسية الشخصيات وذاكرتها والقيم الرمزية المرتبطة به من خلال التعارض بين مجموعة من الثنائيات الضدية التي تسهم في عرض سمات المكان على وفق وظائفها وصفاتها كما في وصف البيت واللابيت والعلية والقبو والدهليز ^(١) .

وعزى الكثير من الباحثين نظرية التقاطبات المكانية لـ (يوري لوتمان) الذي عبر عنها في ضوء علاقات مكانية منظمة على شكل تقابلات هي " (أعلى - أسفل، يسار - يمين)، أو (قريب - بعيد ، محدد - وغير محدد ... " ^(٢)، وقد تكون هذه المفاهيم وسائل لوصف الاختلافات الثقافية النابعة من المكان والمتمثلة في نماذج الاجتماعية والدينية والسياسية .

وأخضع (لوتمان) هذه النماذج الى السمات المكانية "التي تأخذ شكل تضاد ثنائي" ^(٣) السماء - الأرض " أو " (الأرض - العالم السفلي) " (هذه البنية بنية رأسية تتكون من ثلاث عناصر تنظم طبقاً للمحور أعلى - أسفل) وتارة تأخذ تدرج هرمي - اجتماعي يؤكد تضاد السمات التي تقع في قمة الهرم (الرفيع) ، وتلك التي تقع أسفل الهرم (الوضع) ... ^(٤) ، فالواضح ان الإنسان يتأثر بالإحداثيات المكانية التي تعكس دلالاتها الإحساس والشعور به ، فتضاد الأمكنة يظهر صفاتها فالأعلى يتسم بالسمو والسفلي يتصف بالتدني .

ويرى (جان فسنجر) أن "البناء النظري الذي تستند اليه (التقاطبات) المكانية في اشتغالها داخل النص ، وذلك عن طريق أرجاعها الى أصولها المفهومة الأولى ، وميز بين التقاطبات التي تعود الى مفهوم الأبعاد الفيزيائية الثلاث : مثل التعارض بين اليمين واليسار ، وبين الأعلى والأسفل وبين الأمام والخلف كما أبرز التقاطبات المشتقة من مفاهيم المسافة والاتساع أو الحجم

مشكلتاً ثنائيات ضدية مثل : قريب / بعيد ، صغير / كبير ، ... وتلك المستمدة من مفهوم الشكل (دائرة / ومستقيم) أو من مفهوم الحركة (جامد / متحرك ، أفقي / عمودي) ... أو من مفهوم الإضاءة (مضاء / أو مظلم ، أبيض / وأسود ...) وهذه التقاطبات لا تلغي بعضها بعضاً ، وإنما تتكامل فيما بينها ، لتقدم مفاهيم تساعد على فهم كيفية اشتغال المادة المكانية في السرد^(٤)، وضمن هذا السياق يمثل التقاطب الية إجرائية تنهض بدور كبير يظهر الثنائيات الضدية المكانية التي تعبر عن أهم العلاقات بين مسميات وعناصر متعارضة .

أما في الدراسات العربية فقد حظي (التقاطب) باهتمام العديد من النقاد والكتاب لاسيما بعد الاهتمام الذي شهدته المكان بكونه عنصراً مهماً في البناء الروائي تنتوع دلالاته من خلال حضور الشخصيات الروائية وتفاعلها معه بأحاسيسها وأفكارها تجاهه فتكون صفاته ودلالاته قريبة مما تشعر به النفس الإنسانية. ومفهوم التقاطب ليس جديداً كما يقول : (حسن بحراوي) "فنحن نصادفه في جذوره الأولى عند أرسطو في كتابه الفيزياء حين يتحدث عن الأبعاد الكلاسيكية الثلاث (الطول ، العرض ، الارتفاع) ..."^(٥)، كما عبر عن التقاطبات بكونها "ثنائيات ضدية تجمع بين قوى أو عناصر متعارضة ... ومن الملاحظ ان هذه التقاطبات أو الثنائيات الضدية تتسجم مع المنطق والأخلاق السائدة"^(٦). وعرفت التقاطبات المكانية بمسميات أخرى غير التقاطب، منها التقابلات التي تكون بين أنواع المكان ومستوياته لتبين علاقة الشخصية بالمكان من خلال الكشف وتبيان حالتها بين المكانين المتقابلين وما يعتريها، إذ ينعكس هذا الاختلاف في مستويات المكان على أدائها بصورة واضحة تحت تأثير هذه التقابلات التي تسهم في بناء العلاقات الثقافية والمعرفية التي تعبر عنها رؤية السارد .

وأهم أنواع الثنائيات الضدية للمكان ، الدلالة على أهم التحولات لهذا الثنائيات وعلاقتها بالشخصية في رواية درب الزعفران هي :

١- المكان المتناهي بالكبر - المكان المتناهي بالصغر

- المكان المتناهي بالكبر وعلاقته بالشخصية :

الشخصية تحدد وتصنف مساحة المكان من حيث الاتساع والضيق في الرواية، وشعورها تجاهه ينتج التعلق به (الألفة) أو النفور منه (العدائية) ، ولهذا الشعور وجود في داخلها وأفكارها وتتعلق الشخصية الى مكانها المتناهي بالكبر عبر حركة السكون التي تحيطها عبر فكرة الساكن والمتحرك التي وضحتها (غاستون باشلار) بقوله : "المتناهي في الكبر في داخلنا وهو متصل بنوع من تمدد الوجود الذي تكبحه الحياة ويعيقه الحذر ولكن يباشر فعله حين نكون وحيدين بمجرد نقع ساكنين فأنا نعيش في عالم آخر واسع . أن المتناهي في الكبر هو حركة الإنسان الساكن. أنها إحدى الخصائص الدينامية لحلم اليقظة "^(٧)، فالمكان المتناهي بالكبر موجود في داخلنا متجسد في أحلام اليقظة او مكان يحيط بنا نألفه وننتقل فيه متمثلاً في الفضاءات المكانية الواسعة .

فالسكون والرتابة اليومية التي تعيشها الشخصية جعلتها تندفع الى أماكن أخرى أقرب الى الخيالية منها للواقعية ترتادها متعرفة على خباياها مما يجعلها تأخذ انطباعاتها عن هذا المكان الواسع المتناهي كما يصوره الراوي بقوله : "وعيناى تنغلغان على ما يحيطني ، وأراني في ارض بور واسعة ، ... والفضاء ينفرج عن بوابة غريبة ، لم أرها من قبل ..."^(٨) ، فهذه الأماكن مشحونة بالأسرار فالشخصية تراها بعيدة تكتشفها وتفضل البقاء فيها مبتعدة عن ما تعانيه في مكانها الذي شكل بالنسبة أليها مجموعة من الانطباعات الفلقة لتعيش الى حد ما مع أسرارها "بشكل أعمق وأعمق في العالم غير المتناهي"^(٩).

- المكان المتناهي في الصغر وعلاقته بالشخصية :

تكرر ذكر الأمكنة المحددة بصغر مساحتها نسبياً في نص الرواية إلا أننا لم نجد أمكنة متناهية في الصغر حسب دلالة المصطلح ، ولكن توجد أماكن تتصف بصغر مساحتها حددها الراوي بقوله : "من هذا الذي يقف عند قدمي الفقيد المسجى في التابوت ؟ حتى هنا ... وزيدان ينتصب عند قدميه ملتاعاً كما يريد منا ان نفهم ... ذهني ينشد الآن الى التابوت وتحديداً حيث يقف زيدان"^(١٠)، يمكن ان يتحدد مكان وقوف (زيدان) عند قدمي الفقيد مكاناً صغيراً نسبياً يحمل في طياته الكبير، فكيف يقف (زيدان) في مكان حدده هو عند قدمي (الأمين) طيلة حضوره

مراسيم التشييع في جامع الزعفران، هنا ركز الروائي على المكان الصغير المساحة المكانية ريمًا أراد من هذا ان شخصية (زيدان) لها من الطول والعرض ويمكن ان تشغل مساحة أكبر، لكنه شغل جزءً صغيراً من المكان مثل حقيقته في نظر الآخرين الذين يرمقونه باحتقار .

٢- ثنائية : أعلى - أسفل

كل ثنائية تحمل بعداً دلاليّاً يخصها، والغاية منها هي الكشف عن التقاطبات المكانية وما تمثله من قيم اعتبارية تعكس دلالة المكان، فدلالة (الأعلى) تحمل الرقي والقيمة السامية والمكانة الرفيعة أما (الأسفل) فتحمل دلالتها الدناءة والوضاعة والدنس، وبين هاتين الدالتين تحدد صفات المكان بين(الارتفاع والانخفاض) ؛ فالأماكن المرتفعة توجد في الأعلى والمنخفضة تمثل الأسفل و "أن تطابق العلو مع البعد وتميز (الانخفاض) بعكس ذلك يجعلان من (العلو) الاتجاه نحو مكان يزداد اتساعاً، فكلما ارتفعنا أصبح المكان لا نهائياً ، وكلما انخفضنا ضاق المكان، ونتيجة لذلك يختفي المكان تماماً عند النقطة التي تنتهي عندها منطقة الانخفاض، ويترتب على ما سبق ان الحركة لا تكون ممكنة إلا في الأعالي ويصبح التضاد (عالي - منخفض) لازمة بنائية توازي - تضاد آخر هو (خير - شر ...) " (١١) .

وقد مثلت شجرة (اليوكالبتوس) رمزاً للمكان العلوي حيث أثرت تأثيراً كبيراً في الشخصية برائحتها "العبة السائدة هنا هي رائحة اليوكالبتوس ... حيث تمتد أشجارها باسقات .. ما أبهاه وأعذبه ... لو لا تلك الديدان التي تلاحقه كلما تعاظم طولاً وأخضراراً .." (١٢) ، هنا تقاطب بين مكان علوي واقعي مثلته الأشجار الباسقات مع مكان سفلي مثلته الأرض وباطن الأرض بدلالة الديدان التي نخرت الأرض أسفل المكان المرتفع، وهنا تكمن صعوبة ارتفاع اليوكالبتوس تحت تأثير الموت الذي نخر جذوره ، وهذه النماذج التي ساقها الروائي تبين المشهد السائد في المكان (درب الزعفران)، إذ يقوم التقاطب في المقطع السابق من النص الذي يبين المكان الأسفل المنخفض وجود الديدان التي جاءت رمزيتها ودلالاتها واصفة الظرف العصيب الذي يمر به المكان وعجز شخصياته وتواريها عن مواجهة الغريب الذي برع في تصوير المكائد وحبكتها لتتخر تكاتف أهل الزعفران مما حتم عليهم البقاء في نقطة مكانية ثابتة وأحياناً متراجعة من أعلى الى أسفل

بخوفهم وسكوتهم الذي روى أحداثه جذع شجرة اليوكالبتوس الذي حدد بارتفاعه الانحدار نحو الأسفل .

٣- ثنائية الداخل والخارج :

يحمل المكان في طياته قيماً لها تأثير في ارتباط الشخصية والتصاقها به "فكل كائن حي إقليمه الذي يمثل مركز إشعاع بالنسبة إليه ، ويتعارض مع العالم الخارجي الشاسع ... ومن الواضح ان هذا التقسيم يحمل في طياته منظومة قيمية تجعل كل ما هو ملاحق لي وداخل في نطاق إقليمي محط اهتمامي وجزءاً من شواغل ما كان هو خارج هذا الإقليم فلا هم لي به" (١٣) ، ومن خلال هذا التلازم والالتصاق بالمكان تكشف خبايا الشخصية التي يؤثر حدود ذاتها الداخل متشاكلاً مع الخارج ، ويمثل تقاطب الداخل والخارج للمكان فالأول الدائرة الضيقة المحيطة بالشخصية (البيت) والثاني المحيط بالبيت وحامل الأحداث المصيرية التي يتقاسمها مع الداخل وعبر تحرك الشخصية في فضاء الخارج الذي يمثل انفتاحها وتعاملها مع الأحداث الذي يعكس حالتها الداخلية وما تتمتع به من سكون وطمأنينة في الداخل (المكان)، يعني ذلك أنها تكون في راحة وصفاء في الخارج ، وثمة علاقة جدلية بين الداخل / الخارج فالداخل يمثل الأمان الذي يحتويها أما الخارج يمثل العداء والخوف لذا حرصت الشخصية عندما حاصرها الخارج (شارع الزعفران) واستشعرت خطره لجأت الى الداخل كما جاء بوصف الراوي حال (الأمين): "بدأ مرعوباً ومفزوعاً فالرجل يشعر ان الشباك منصوبه حوله ... هل تتذكر إصراره على إبقاء الستائر القرمزية مسدلة طوال النهار ؟ - أتذكر أنه صاح بي مرة أن أعيدها الى وضعها السابق عندما بادرت الى فتحها ... " (١٤) ، إن انعزال (الأمين) عن الخارج يوضح معاناته وما يلاقه في الخارج وإحساسه بأن الشراك منصوبة حوله من قبل الغريب الذي يكيد له الكره لذا لجأ (الأمين) الى الداخل (البيت) من خطر الخارج الشارع، فالداخل مثل له المأوى والحماية فيما مثل الخارج مكان تربص وغيلة وتهديد له .

في مكان آخر يتحول المكان (الداخل) الذي تعيش فيه الشخصية الى مكان مليء بالسلبية تحاول التحرر منه والابتعاد عنه مثلما فعلت المجنونة " رأيت المجنونة مرة ، تفر من دارها كما يقولون ولجأت إلينا ... " (١٥)، هنا الداخل (البيت) أدى وظيفة عكسية مضادة، لأنه لم يمنح

شخصية (سمية عبد الحليم) الأمان والطمأنينة بل أشعرها بالحزن والوحدة والخوف الذي أنتابها، وهذا الإحساس دفعها لكي تتحرر منه وتتطلع الى الخارج بالرغم عما مثله الخارج من ضيق لبعض الشخصيات الأخرى، ولهذا نرى أن ثنائية الداخل والخارج تجسدت بصورة مختلفة، فتارة يكون الداخل محط أمان ولطف بالشخصية وأخرى يكون مصدراً لحزنها وخوفها ، وهنا نشخص قلق الشخصية وخوفها من الداخل كما هو خوفها من الخارج وهذه إشارة الى ان علاقة الشخصية بالمكان الداخل / الخارج علاقة غير متألّفة أو منسجمة، فتجليات المكان في نص الرواية على وفق ثنائية (الداخل / الخارج) تتسم بالتعارض القائم بينهما .

٤ - ثنائية أمام - خلف

تضيف هذه الثنائية للمكان الروائي الكثير من الرموز والدلالات التي يمكن من خلالها تحديد زاوية أكثر دقة لمكان وقوع الحدث " وكل قادم يود لو تقدم خطوة الى الأمام ، وقررت ألا أترشح من مكاني بجانب رأس الفقيد ... " ^(١٦)، كل شخصية قادمة الى جامع الزعفران (موقع الحدث) تبتغي من مشورها الذي قطعت في ذلك اليوم اللاهب لحضور مراسيم تشيع جثمان (جلال الدين الأمين) ان تقف في الأمام، وحرص القادمون على التقدم الى الأمام يفسر ما يجول في النفوس من صراع نفسي مضطرب بالشك وترى من ثباتها في هذا المكان (الأمام) محافظة على سكونها وأترانها و ترحلها الى (الخلف) أو وراء الذي يمثل في نظرها الشك وهواجس من الخوف وانعدام الثقة . ودلّ حضور الظرف المكاني (أمام) في النص وماله من رمزية ودلالة تحقق شيء من الطمأنينة و الأمان للشخصية : "أنها مولعة بسكنى الغرف الأمامية مساءً ، لتطل منها عبر النوافذ المشبكة بالحدائد المثمنة على الحديقة الأمامية الصغيرة ومنها على الشارع متوقعة زيارة بعض أهلها أما النهار فهو وقتها الآخر مع البركة التي يحتضنها المنزل من جانبه الخلفي وتسورها الحديقة الكبيرة ... " ^(١٧)، يصور التقاطب المكاني في النص السابق حركة الشخصية في المكان حيث تلجأ الى الغرف الأمامية التي تشعر فيها بالأمان عند حلول الظلام لتتظر من نوافذها المطلّة على الحديقة الأمامية لعلها تلنقي مع احد من أهلها بينما تعود في وقت النهار الى جانب البيت الخلفي مبتعدة عن الواجهات الظاهرية كمن يريد الاستتار والتخفي ، حيث ضم المكان الخلفي البركة غالباً ما تكون مجهورة بعيدة عن أنظار الآخرين ؛ فالمكان (الخلف) محط أسرارها وخباياها النفسية .

واستناداً الى ما تقدّم فقد مثلت ثنائية (أمام - خلف) بؤرة توتر تتضح بالتناقض، فالأولى: مثلت الألفة والأمان والاستقرار، أما الثانية: فقد انحرفت بعيداً بإثارتها مشاعر الخوف والقلق وبالتالي مثلت هذه الثنائية سمة التحول في شعور الشخصية تجاه المكان بفعل دلالاته وتصنيفها والتفاعل الحاصل بينها وبين الشخصية .

ثانياً - أنسنة المكان وعلاقتها بالشخصية :

١- أعضاءه حول المصطلح :

شكّلت أنسنة المكان ملمحاً جديداً في دراسة بنية الرواية الحديثة والمعاصرة التي تجاوزت مرحلة الواقعية من خلال التوسع في استخدام التقنيات الحديثة وتوظيفها في الخروج على العلاقات المألوفة بين الأشياء والظواهر الطبيعية والدخول في علاقات جديدة منها أنسنة المكان بوصفها "التقنية الفنية القادرة على بث الحياة الإنسانية في غير الإنسان وحين تضي على المكان الروائي تحوله من مجرد فضاء يحوي الأحداث والزمن والشخصيات الى كائن واع يدرك ما يجري حوله" ^(١٨) ، وبهذا اتخذت الأنسنة شكلاً جديداً تجاوز العادة الى أشكال أخرى لا تقتصر في عملها على المظهر الخارجي للأشياء فقط بل تجاوزت ذلك الى منحها روحاً وكياناً وطباعاً بشرية.

وأنسنة الأشياء أصولها قديمة تعود الى أزمان قديمة سابقة للتاريخ وكانت بدايتها مزج الأنسنة مع الأساطير والحكايات الخرافية التي ضمت العديد من الأمثلة عن أنسنة الحيوانات والنبات والجمادات التي أستخدمها سكان الرافدين القدماء، ولعل الآثار الموجودة خير دليل على ذلك فالأختام الأسطوانية التي عثر عليها تجسد تلك العلاقة التي يبرهن نتاج العرب الادبي الذي ورثوه ممن سبقهم، فهم يمتلكون أرثاً أدبياً نقله المؤلفون من الجاهلية في كتب اختصت في الأمثال والقصص على أنسنة الحيوانات وغيرها والتي منحتها الأنسنة عقلاً تفكر به ولساناً تعبر به ^(١٩).

والأنسنة بوصفها مصطلحاً متداولاً في الدراسات الأدبية يعود الى بداية العصر الحديث منطلقاً من الأفكار الفلسفية التي جعلت من الإنسان محور الوجود وهنا انتقلت الأنسنة الى الحقل الأدبي بوصفها "ظاهرة عامة في الفن ... لا تخضع للمقاييس المنطقية ولا تتشابه الأحداث الواقعية يضيف فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة ... والأشياء وظواهر الطبيعة حين يشكلها تشكيلاً إنسانياً ويجعلها كأني أنسان تتحرك وتحس وتعبر وتتعاطف وتقسو حسب الموقف الذي أنسنة من أجله" (٢٠).

وتعدُّ الرواية من أهم الأعمال الأدبية التي اتخذت هذا البعد الذي تجاوز المؤلف في منح الصفات الإنسانية للموجودات الأخرى غير الإنسان وكثيرة هي الأعمال الروائية التي صورت العلاقات الإنسانية التي تجاوزت الحدود الطبيعية بين الإنسان والموجودات الأخرى سواء كانت حية أم غير ذلك وشكل الطابع الإنساني محور التفاعل معها بجميع أشكالها والتي "تقوم بدورها الإنساني الجديد لتسهم في خلق المناخ العام الذي يحققه وليجعلها تتجاوز مع الإنسان مشاعره وأفكاره كي تشاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة وتجيء هذه المجاورة نتيجة لحاجة ذاتية وفنية تسعى الى تفسير الأحداث ..."(٢١).

٢- تجليات أنسنة المكان في الرواية وعلاقتها بالشخصية :

مثّلت رواية (درب الزعفران) نموذجاً روائياً مميزاً في أنسنة الأشياء لا سيما المكان الذي أكتسب "خصائص إضافية تحوله من حيز جغرافي يحوي الزمن والأحداث والشخصيات الى كائن واع يكتسب طباع البشر ويؤدي الدور الإنساني على مستوى بعدي النفسي والجسدي فيقوم بالأفعال والحركات الإنسانية كما يمتلئ بأحاسيس الإنسان ومشاعره" (٢٢)، وتجلت أنسنة المكان في رواية (درب الزعفران) في بعدين هما:

أ- تجليات أنسنة المكان في البعد الجسدي:

البعد الظاهري (الجسدي) والذي يمثل الجزء المحسوس من أعضاء بنائه الخارجية، وتعتمد عملية الأنسنة على أساس اطلاق سمات وخصائص الإنسان على الشيء المؤنس وفي الرواية موضوع الدراسة أكتسب المكان بعض خصائص الجسد الإنساني منحه طاقة للقيام بأفعال إنسانية

يتفاعل بها مع الآخرين "درب الزعفران الذي أحتضن صبية الطاهر ..."^(٢٣)، الاحتضان أحدى خصائص الجسد الإنساني ومن السلوكيات التي تحمل دلالة إيجابية توحى بالتواصل والرعاية والاهتمام، وهنا أصبح المكان كياناً إنسانياً اجتماعياً لجأت اليه الشخصية مما تعانیه من قسوة ومأساة "ويجسد هذا التفاعل مستوى عميقاً من الأنسنة، لأنه يكون إلا بين المثليين، مما يثبت تحول المكان الى أنسان حقيقي يمتلك القدرة الكافية للتفاعل الجسدي مع أنسان آخر"^(٢٤) .

وفي نص آخر من الرواية يتجنب المكان الآخرين والحديث حولهم وحول أحداث وقعت في الماضي خشية منه ان يتورط "فشارعنا يتقن الهمس"^(٢٥)، فيكون المكان غير قادر على التحدث بصوت مسموع لخوفه مما أحاط به من عالم مليء بقصص أصبحت رهاباً لساكنيه، لذلك حل الهمس محل الكلام المسموع على نحو شبه تام في شارع الزعفران، ويأتي الهمس بوصفه خصيصة من خصائص الإنسان، ملازمة لوجود الجسد مانحة المكان لتعبر عن الحالة التي تعيشها الشخصية التي لازمها الخوف والقلق الى درجة أصبح فيها همس الشخصية مع نفسها صوتها الذي تعبر به عن موقفها من الأحداث المختلفة .

ويسقط الراوي صفات إنسانية على المكان كالتحول الى حالة غير مستقرة تنذر بانتهاء الهدوء في شارع الزعفران "الزعفران مستقر ... أخطر ما يشغلني الآن اني أرى مخاضاً خلف الاستقرار ..."^(٢٦)، ينبثق الخطر من نظرة الشخصية المستشرفة لمستقبل المكان، فالمواقف والأحداث الماضية شكلت صور تحول مكاني عبر عن بداية (المخاض)، إذ أن هذا الرمز الأنثوي يحضر بوصفه جسراً تحول الى رمز مكاني يعبر عن تحولات ومعاناة أصابت المكان، وبالتالي تتبأت الشخصية بالعجز والخيبة التي كرسها لها المكان .

ب - تجليات البعد النفسي في أنسنة المكان وعلاقتها بالشخصية :

تتميز الذات الإنسانية بسمات وخصائص متنوعة يتصف بها المكان عند أنسنته، ويمكن تقسيم الصفات الإنسانية التي مُنحت للمكان في درب الزعفران الى:

- سمات إيجابية :

السعي لأجل الاستقرار والطمأنينة سمة ذات مردود إيجابي كبير لمن يتصف بها بوصفها أسلوباً ناجحاً لتجاوز الأحداث التي تهدد كيان الذات الإنسانية، وحيّ الزعفران لجأ الى السعي والابتعاد عن الصدام المباشر مع الغريب المبتز، وتحمل كل أشكال التهديد والمكاره "وشارع الزعفران يهوى الاستقرار..."^(٢٧)، أن هذا التصرف لا يخلو من الشعور بالمسؤولية وهو إجراء إنساني كان الغرض منه دفع الخطر، وهذا تصرف حسن للمكان الواعي في استيعاب ما يجري فيه من شدة وقسوة اتجاه شخصياته، فشرع للسعي في لملة الأمور بحكمة ، فالزعفران يعيش أياماً صعبة مريره دفعته للتغاضي عن الكثير من الأشياء سعياً لديمومة الاستقرار وتجاوز المصاعب، ويدل هذا على تبلور المكان شخصية إنسانية ناضجة تخفي ما يجول في داخلها وتتصرف على وفق ما تمليه عليها أخلاقها .

ومن الصفات الإيجابية الأخرى التي أتصف بها المكان حفظ أسرار الآخرين كونه يحمل معرفة وحقيقة جميع الذين مروا به وسكنوا فيه، وقد استطاع أن يصنفهم إلى مراتب مختلفة تميزوا بها من خلال أفعالهم وأقوالهم "ما أجهل المعرفة ... وبقيت أسيرها في شرك أسرار الزعفران ... لا يخوض فيما يعده ستر الآخرين"^(٢٨).

واتصف المكان بسمة أخرى هي الحب والوفاء لأبنائه، فالزعفران يعرف كيف يميز بين أبنائه والغرباء، فأبنائه الذين لا يعرفون غيره يفضلونه على باقي الأماكن وبالمقابل يعاملهم المكان بقدر عال من الوفاء والحب ويغمرهم بالرعاية والسلام "أقمنا فيه وأقام هو فينا ... نبدو أكثر تجانساً وألتصاقاً وتعارفاً..."^(٢٩)، فتأقلمهم معه، أشعرهم بأنهم جزء من ذلك الكيان (المكان) الذي يلجؤون اليه في مواجهة المحن والأحزان، وكذلك تعامله مع الغرباء الذين كان يعاملهم وما يتناسب مع نواياهم المضمرّة، فتجربته مع الدخلاء ليست حسنة خصوصاً الذين ينقبون في شؤونهم، فهو يرفضهم ويحيد عنهم وهذا الرفض والرغبة في نبذ الغريب الصفيق أكتسبها ساكنوه "لم تكن تجربتنا

مع الدخلاء حسنة ، ولهذا ترانا نحيد عنهم ، نتجنبهم قدر المستطاع ، لنبقى على شخصية حينما العتيد حي الزعفران^(٣٠) .

- سمات سلبية :

أشتمل درب الزعفران على العديد من السمات السلبية أهمها :

• **التحول :** "يعد التحول سمة سلبية في شخصية المكان وسلوكه ، ومشاعره ، ومبادئه فقد كان تحولاً لا تراجعياً، أي من حالة حسنة الى حالة سيئة ولذلك يكون أي من حالة ضعف في شخصية (المكان ...)"^(٣١)، تعرض (درب الزعفران) الى تحولات كبيرة بعدما كانت تسوده المحبة والطيبة، فتبدلت تلك السمات دافعة الشخصية الى مخاصمته والابتعاد عنه فرغم "الالتصاق النفسي الذي يشدني الى الزعفران ... أثور ضده وأهرب منه ، وقد فعلتها وبقيت أحيا عنه بعيداً"^(٣٢)، فالتحول الى وضع قاسٍ أشعرها بالتوتر الذي حدى بها الى معاقبته والابتعاد عنه، فهي بسيطة غير قادرة على تحمل أعبائه التي تراكمت بسبب خضوعه للغرباء الذين عكروا صفوه، وهنا تتجسد الأفعال الإنسانية بأقوى صورها تجسداً جعل المكان إنساناً عصفت به التحولات التي جعلته حاصداً لأرواح ساكنيه الأبرياء مما دفعها الى الهرب منه كأنها تهرب من عدوٍ متربص بهم .

وتجرد المكان من الروح الإنسانية حطّ من مكانته في نظر شخصياته متحولاً الى كيان تخفى فيه الحقائق وبمرور الوقت أصبح " شارع الغموض والريبة " ^(٣٣)، ويعود بسبب ذلك التحول الى تغاضي الشخصية عما يجري في الوقوف أو مجابهة الذين لم يجدوا سوى الحيلة والابتزاز في تخلصهم من الذين يقفون أمام تحقيق أطماعهم ومأربهم ، لذا تميز (شارع الزعفران) بالتزامه الصمت الذي زاد من تمادي الغرباء وتشجيعهم على الرغم من خشيتهم لهم، وهذه الخشية جعلته ينحرف وراء الخدع والأوهام التي زادت من شدة غموضه بالنسبة للشخصية .

• **العجز:** من السمات الإنسانية السلبية التي أُنسب بها (درب الزعفران) ، مبينةً ضعفه وعجزه في حماية شخصياته والدفاع عنهم ولم يقدّم بواجبه في إعانتهم والإحساس بمعاناتهم، وعجز المكان أرتبط بعلاقة مشابهة وصلت إليها الشخصية، فهي أيضاً وصلت الى حالة من الخضوع التام في

مواجهة مصدر قلقها الغريب المبتز فلم تستطيع مواجهة المصائب المتلاحقة وتجاوزها، وعلى الرغم من وجود الإرادة وأنها ظلت تتجنب ذلك الخطر خوفاً وخشية مما قد يحصل لها، ومن صور خذلان المكان وعجزه انه يترصد بالشخصية ويكيد لها كفعل شارع السموأل مع (الأمين) حينما لجأ إليه "... وماذا عن شارع السموأل ، كم يفرح بهذا الخبر ... " (٣٤) ، فبدل من ان يقف مع (الأمين) خذله وكأنه أحد الخصوم .

• **الخوف :** "سمة سلبية تعتري المكان نتيجة شعوره بخطر موهم غير مرئي أو حقيقي ملموس ، يولد في أعماقه انفعالات دائماً أو عابراً حسب سلوكه ... " (٣٥) ، والخوف انفعال سلبي آخر وصف به المكان وكأنه يخشى الآخرين لتتناقض فيه الأشياء شاعراً الهزيمة التي باتت تسري في عروقه، ومثلما صممت الشخصية فيه خوفاً من الفضائح التي كانت تُهدد بها فإن شارع الزعفران الذي أدرك هو الآخر معنى التهديد؛ فالفضيحة كانت سلاحاً يهدد وجوده (٣٦) .

٣- أنسنة مكونات المكان وعلاقتها بالشخصية :

تتجلى أنسنة مكونات المكان في رواية (درب الزعفران) بتصوير أهم مكوناته الأشجار، والطيور والنهر والبيوت على أنها كائنات عاقلة تفهم وتفكر لها غرائزها النفسية فتتصالح وتتخاصم معها وتظهر تلك العلاقة العميقة التي ارتبطت بها الشخصية مع تلك المكونات في علاقة طيور الغاق مع شخصية (سمية عبد الحليم)، "وهي تتجاوب معه ... تحبه و تشغف به ... " (٣٧)، هنا تظهر الشخصية بدور المربي والمتعاطف معها وتجاوب الطيور معها تجاوب الأبناء لمربيهم ، تظهر تلك الطيور (الغاق) بموقف العارف المدرك لما يحصل في (درب الزعفران) فتقوم بحركات مصدراً أصواتاً تريد من خلالها أخبار الآخرين بما وقع على (سمية عبد الحليم) (المجنونة)

من ظلم في درب الزعفران "حتى الغاق ... بدأ صاخباً ، متقصداً ، لجوجاً ... ، الغاق يطرق على الشبايبك"^(٣٨)، يعلن الغاق تعاطفه مع الشخصية وينظر لها بلهفة كأنما يشكو للآخرين ما تعانيه من ألم جسده سنوات القهر والعزلة في بيتها (بيت المجنونة)، مخاطباً أهل الزعفران بصوت صاخب لجوج ليعبر لهم عن رفضه معاملتهم للمرأة التي تجاوزت معه وتخطبه بروح رقيقة كأنها تتعامل مع إنسانٍ عاقلٍ وبعد ان لمست هذه الطيور ان لا تجاوب من قبل أهالي الحي معها كان الدافع اللاشعوري لها ان تتدفع بقوة الى التعاطف أكثر حينما رأتها مشرفة على الموت وقد أخذ الهزال منها مأخذاً فطرق الغاق الشبايبك طرقاتاً عفوية كأنها إنسانٌ ينبه إنساناً آخر بما يجري حوله ، هنا منحت الطيور حساً انسانياً تجلى في تقمصها لأدوار إنسانيه منها إحساسها بمعاناة الآخرين الذي فرض عليها واجباً انسانياً اخلاقياً نحو السعي في التنبيه الى ما كان غائب عن أهل الزعفران عبر أصواتها التي تطلقها في فضاء الزعفران وكذلك طرقها أبواب وشبايبك بيوته .

ومن مكونات المكان الأخرى التي أنسها الروائي (النهر) الذي حمله كل المخاوف وتشكلت له ذاتٌ تصرُّ على معاداة الشخصية والوقوف بالصد منها "وصوت الماء المتدفق الجاري يصفع رأسي، ويطن في أذني، شديداً كمن يهدم تلك الطاقة التي تصر في داخلي على النجاة"^(٣٩)، هذا التصرف الخالي من الروح الإنسانية الرقيقة الذي قامت به مياه النهر يحط من شأنه ويقلل من ذلك الحس الغامر تجاه النهر كونه يمتلك في مخيال الشخصية العذوبة والصفاء ولكن بموقفه الذي أتخذه ضدها جعلها تنتظر اليه نظرة قاسية ولدت في نفسها مشاعر الكره والسأم تجاهه، واتصافه بسمة الأنانية الإنسانية التي وضعت المثبطات والعقبات التي تحد من مقاومة الشخصية في تجاوز المحن والعبور الى ضفة الأمان وكأنه يخفي لها عداً مضمرأ بتعامله الغريب معها ، ويدل هذا على حالة الضعف في شخصيته ؛ فالنقاء الذي تميز به تبدل الى النزق والغضب بمحاصرتها وكسر أرادتها والحد من قدرتها ، فالصوت و الصفع الذي مارسه النهر تجاه الشخصية ظهر كأنه تصرف إنساني وضيع يخلو من الطيبة والشجاعة .

والأشجار مكون آخر من مكونات المكان، حملت سمة المدافع الذي لاذت به (مثال) الشخصية المستضعفة والمتلبسة في حي الزعفران "... ومثال تركض مذعورة ... فترك حذاءيها خلفها وتحتمي بشجرة"^(٤٠)، مثلث (الشجرة) المأوى والحماية للشخصية بعد ان عجز الآخرين عن

دفع ما حدث لها وضع هذا المظهر (الشجرة) حامياً طلبت منه الشخصية العون والنجدة في دفع الخطر الذي كان يلاحقها، وبهذا السلوك تخلق هذا المكون المكاني عن السمات الطبيعية له وأمتك مقومات إنسانية أرتبط بها بالشخصية على وفق نوع من العلاقة المبنية على أساس الانتماء والتشارك ، فهو يرى ما حصل وفرارها نحوه إيماناً بأنه ذاتٌ تحتمي بها .

وفي موضع آخر من أنسنة المكان في نص الرواية أنسنة (البيوت) التي عانت هي الأخرى من مواجهة المحن مما دفعها الى السكوت وهي ترى الحقد والكراهية التي خيمت على المكان وما فعلته لم يختلف عما قامت به الشخصيات "... والمنزلان أمامي يلفهما الصمت" ^(٤١) ، فلوئهما الى الصمت الذي أصبح خير وسيلة تواجه بها المصاعب سمة تميزت بعلاقة قوية بين الشخصيات والمكان، فالشخصيات صامته تتجنب الخوض في أي حديث خوفاً من الافتضاح والابتزاز، وكذلك البيوت التي هي محط أسرار الناس عاشت صمتاً شديداً الوطأة، ولجوء الطرفين في(شارع الزعفران) الشخصية والمكان إليه ، دليل على ضعفها والهوان الذي عاناه معاً ، فبقي الصوت المرتفع والفعل المؤثر للغرباء وخضوع وصمت تامين للشخصيات الأخرى والمكان .

مما سبق يتضح أن الأنسنة يأتي بها الكاتب في العمل الروائي لإضفاء صفات الإنسان على غير الإنسان من الكائنات الأخرى ، الحيوانات والنباتات إضافة الى الجمادات ، وأنسنة المكان في الرواية لها أبعاد فنية وجمالية تتمثل في الخروج عن المحاكاة القديمة والنظر للمكان على وفق منظور قائم على أكسابه ابعاداً جديدة تبعث على الجدة والإثارة يكتسب منها تعبيرات ووضعيات لها دلالات في عرف الكيان الإنساني.

ثالثاً: تغريبة المكان وعلاقتها بالشخصية :

١- أضاءه حول المصطلح :

يمثل الاغتراب المكاني تحولاً في الشعور من الانتماء الى حالة من الانفصال اتجاه المكان الذي يدفع الشخصية الى حالة اللاقدرة بعجزها عن تحقيق التألف مع المكان من جهة ومع شخصياته من جهة أخرى، ويتكسر بداخلها الشعور بالنفي، وعلى الرغم من أنها ما زالت تحت فضائه فأنها عاجزة عن مسايرته ومنكفى على ذاتها منغلقة عن الخارج .

وتجلّت الغرائبية في الرواية العربية "داخل رحم الأسطوري الفولكلوري ، والمحكيّات الشعبية الشفوية وما هو سحري مقترن بالذاكرة - في إطار كلية المتخيل - ومقترن بنحل ومعتقدات شرقية ومحلية بالإضافة الى دور المخيّلة داخل محيط اجتماعي ..."^(٤٢)، لذا فالغرائبية مجال واسع عرفته الأنواع السردية منذ القدم ظهر في الآداب العالمية القديمة سيما الأساطير والخرافات التي عرفها الأدب اليوناني، وكذلك نجد لها جذوراً في النصوص الأدبية العربية القديمة التي زخرت نصوصها بمختلف العناصر الغرائبية من شخصيات وأماكن وأحداث .

وإنّ "سرد الغرابة كما يقول كرزنسكي - ينجز كمجازفة لبنيات استدلالية تحمل التناقض والشعور بالغريب غير القابل للقبض وهو ما يصطلح عليه (تودوروف) بالحيرة والدهشة أو ما نسميه بـ"سردية التعجيب"^(٤٣)، كذلك تحدد الأماكن الغرائبية بما تنهض به من أفعال متنوعة تنطلق "من طبيعة تركيبها المخالفة للفضاءات المرجعية أو الواقعية الأليفة"^(٤٤)، فتواجه فيه الشخصية سلسلة متنوعة من الخوف والقهر والاستلاب وكل المظاهر التي تؤدي بها ان تصبح كياناً مغترباً في مكانه ومجتمعه .

ويرى بعض الباحثين أن كل ما هو غير مألوف يدخل في دائرة الغرائبية التي تعبر عن نوع من القلق المقيم و الالتباس بين الوعي وغيبه وتداخل الماضي بالحاضر الذي يشكل وضعاً غير مستقر بين المكان والزمان مسبباً للذات انفعالات الخوف والرغبة وفقدان الطمأنينة من جهة والتشويق وحب الاستطلاع لتفسير ما يحدث حولها جهة أخرى^(٤٥) ، والملاحظ ان هناك علاقة جدلية بين الألفة والغرابة "فالشيء الغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة يسترعي النظر بوجوده خارج مقره"^(٤٦) .

وعلى الرغم من كثرة الدراسات حول مفهوم (الاغتراب) إلا أنها لم تصل الى اتفاق حول تعريف واحد وإنما تضاربت الآراء والاتجاهات لذا واجه المصطلح صعوبة في تحديد تعريفاً دقيقاً وبقي يعاني من كثرة دخول عناصر أخرى إليه مثل العزلة والانسلاخ والعجز وعدم التكيف مع الأوضاع السائدة في مكاناً ما "وما زالت الآراء والتعريفات فيه تشكل خلافاً جوهرياً صميميه

حتى بالنسبة للمتخصصين، هذا فضلاً عن عدم الاتفاق على أصوله وأساساته بل وحتى مظاهره ،
فهناك من يربطه بالدين و هناك من يربطه باللاوعي وهناك من يربطه بالمعرفة^(٤٧) .

٢- أشكال الاغتراب في (درب الزعفران) :

تطرح الرواية صوراً عديدة للاغتراب مُشكّلةً شعوراً في انكفاء الشخصية على نفسها جراء ما تعرضت له من عنف وابتزاز الآخر تفسره حالة اضطراباتها الداخلية وتبينه حواراتها النفسية والاسترجاعات التي تفتح بها ذاكرة الذهول بحديثها الذي مثل إحساسها بالاغتراب ليتحول بعد ذلك الى حالة قسرية، فاغتراب الشخصية في المكان أدى الى حالة من الاغتراب الاجتماعي وانفصال الذات عن الواقع واختلافها عن الآخرين، وبالتالي تكون لديها شعور بغموض المكان وعتمة أناسه، وأهم أشكال الاغتراب التي يمكن تحديدها في نص الرواية هي:

أ- الاغتراب المكاني وعلاقته بالشخصية :

يرصد المكان الغرائبي في النص الروائي: بأنه مكان أسطوري يتجاوز المؤلف والطبيعي " وأراني في أرض بور واسعة ، وثمة نسر يلوح في السماء ، يبتغي أمراً ، وما زال يطوف حولي ، وعيون حمر كأنها الجمر تأتيني من جهات ثلاث ، عيون حمر في رؤوس غامضة غريبة تشبه الكلاب المسعورة ، تقفز مثلها تأتي راكضة ، تبتغيني وأنا لا أجد سبيلاً غير الركض ، فساقاي لا يقويان على حملي .. وهن يمنعي من أن أسرع وأسابق الريح .. والجمر الملهب يقترب مني والأرض تزداد وعورة ، الشوك البري يأكل قدمي وأنا مسرع ..."^(٤٨)، يكشف النص السابق عن واقع اغترابي للمكان عانت منه الشخصية بدخول الآخر وملاحقته لها بتصوير تخيلي رصد فيه الراوي تحولات المكان بربطه بالوصف الغرائبي المتصل بالشخصية الروائية وعلاقتها بالمكان مبينه الحالة التي تعيشها الشخصية في ذلك الشارع الذي تكرست فيه السلبية، فبعد أن خضع أغلب ساكني حي الزعفران الى الغريب المتسلط بدى المكان ارض موحشة واسعة ، وعلى

الرغم من هذا الاتساع تمكن الضيق من الشخصية فعاشت محاصرةً فيه ، فالعيون الحمر والرؤوس الغامضة تحيطها من جهات مختلفة لا سيما جهة السماء التي أمتلكها النسر الذي يتخطف أرواح كل من يعارض ذلك الغريب ، وكذلك ظهور ما يشبه الكلاب المسعورة التي أمتلأ بها المكان تقسر معضلة التشوه التي وصل لها بعض من سلوكه بعيد عن الآدمية ولهم سمات الكلاب المسعورة التي تنهش كل من مر بها .

تأتي غرائبية المكان الذي تحول الى متاهة أو كابوس أحسته الشخصية بسعته وضيقه ووحشته، وهو ما يضفي عليه طابع الغرائبية فتحوله الى متاهة متزامية مليئة بكائنات مخيفة طاردها في ذلك المكان الذي تباعدت أطرفه وكأنها تدخل عوالم حلمية تتضح بخوف الشخصية (الراوي) وهلعة وشعورة بقسوة ووحشة المكان وساكنيه، حينما حدثه (الحامد) عن المجنونة وقضيتها البالغة الحساسية والتكتم، ومن خلال التصوير الغرائبي للمكان بين الراوي الواقع المليء بالتناقضات الاجتماعية وصور القهر الإنساني الذي تعيشه الشخصية.

إنّ تنامي الممارسات الخاطئة والغموض والعنف وخضوع الشخصية واستسلامها أدى الى ظهور حالة من الاضطراب في منظومة القيم الأصيلة للمجتمع ، وما يحدث من خلل في علاقة الشخصية بالمكان وهي تعيش مزيداً من الضياع والخوف ، ولعل أغرب ما رأيته في شارع الزعفران المشاهد الكابوسية التي تحولت بها ملامح الشخصيات المتغيرة بعضها حدّ المسخ "وعيون الجمر ترتسم أمامي وأنا أبتعد عنها لا حسها مشعلاً يوحد الحرارة ... ومعشراً غريباً من القطط ، بيض وسود وأخرى حمر ومخططة بالأسود والأرجوان ، دفق منها يتحرك في طرفي الزعفران بعيون تتوقد عند المساء ، وجمهرة تتحرك الى أمام ، يتقدمها هر ضخم مرقط بالأسود والأبيض ، والعيون ملتهبة عند المساء ، لم أر البشر ذلك المساء ، وأن الزعفران ملك القطط ، ثم تدفق آخرون من الأزقة منضمين الى هذا الحشد الذي يمضي بهدوء عجيب ... وأنا لا أدري هل كنت أرصدها عن بعد ... ، ومضت القطط تتجه نحو منتصف الشارع ، لتتمهل في سيرها عند دائرة البريد..."^(٩) ، ظهور كائنات أخرى غير البشر في شارع الزعفران تمتلكه وتسيطر عليه، وهي صورة فيها من الرمزية والدلالة التي تعبر عن أمتساخ الإنسان بما يقوم به من أفعال مشينه وتحوله الى مخلوق آخر بسبب ظلم نفسه وظلم الآخرين من حوله بما قام به من أفعال وانتهاكات مثلت رغباته الشريرة ونوازعه النفسية المريضة التي دفعته الى أن يقدم نفسه على الآخرين، حيث فأصبحت الشخصية تستصرخ ذاتها وسط تلك المفارقات الغرائبية التي ملئت المكان وأفضت

الأحداث الى رسم صورة مستقبلية مملوءة بالتناقضات والنزوع غير السوي الذي بدى عليه المتسلط والمتحكم في شارع الزعفران الذي لا يعرف الرحمة والإنسانية في قاموسه ، وليس له من غاية سوى التحكم بمصائر الآخرين والانتقام منهم، والصورة التي قدّمها الراوي في النص السابق فيها تشخيص غرائبي للمكان بعد ان صار مسخاً مشوّهاً.

ب- الاغتراب (الذاتي) النفسي في المكان وعلاقته بالشخصية :

الاغتراب الذاتي هو أقصى ما تصل اليه الشخصية من حالة الانفصال "والاكتفاء على الذات والشعور التام عن القيام بأية مبادرة لتنتشل هذه الشخصية من مستنقع الخيبة والارتكاس والماضي المشحون بكم هائل من الآلام والإحباطات"^(٥٠).

وفي درب الزعفران عانت الشخصية من الاغتراب الذاتي لاسيما الشخصيات الرئيسية، كشخصية (زيدان) الذي أنتابه شعور بازدرء الآخرين وكرههم له، مما ولد في نفسه عدم شعوراً أعدم التفاعلية بينه والآخرين ، وكذلك ضعف التعاطف والألفة، فهو يعيش في ذلك المكان بين أهل الحي، إلا أنه رغم ذلك يعاني العزلة التي تجلت في مظاهر الغربة أو الاغتراب الذي عاشته الشخصية في المكان الذي دفعها الى الشعور بالوحدة والحزن وترك المحيطين به والتعلق بأمه التي رحلت عنه "ومن حقه ان يتعلق بها في ضوء الحرمان ... ثمة لوعة تخنقه ... فهو الابن المرفوض"^(٥١) ، فالشعور الذي كان ينتابه هو أن المكان وساكنيه سحّقه بنظراتهم وقذفوه على الهامش الذي رفضه هو ، وإصراره على العودة الى المكان الذي يعيش العزلة الداخلية تجاهه يعني انه يعيش خارج مع المكان ومنفصل عنه داخلياً يحسه منفى بالرغم من انه يعيش فيه ، فما فيه يذكره بحوادث جمة حدثت له ولامه من قبل ، فالاستذكار والاسترجاعات أصبحت في نظر الشخصية امتدادات بين الحاضر الذي أصبح حضيرة لتراكمات الزعفران الماضية التي ولدت لديه إحساساً متناقضاً للمكان، فهو يشعر فيه بالغربة والعداوة للآخر فتقل الماضي وأحداثه الفظيعة بقيت ملازمة للشخصية واسمة حياتها وتصرفها بالغربة والمعاناة في ذلك المكان .

وتجسد الاغتراب بمظاهر العزلة لدى (وهاب) وإحساسه بأن الآخرين لا يلتقون معه أو يواكبونه فكرياً وموضوعياً، وليعاني انفصلاً حاداً عن المكان الذي أصبح فيه عاجزاً عن تحقيق ذاته

وجوده "وأنا في عالم ما ، يبدو قاتماً أصواته تعود إليه فذهني لم يعد يألف الاستجابة ... في متاهات الألغاز والأحاجي"^(٥٢)، هنا فقدت الشخصية إيمانها بقدرتها على احتمال مأساتها في مجابهة ما يجري في شارع الزعفران بما هي عليه من ضعف ولد عندها حالة من الانهزامية ومستسلمة لواقع لم تجد فيه تغييراً أو سبيلاً للخلاص، فهي في عجز تام يدفعها نحو اغتراب مكاني أثر في جانبها الروحي والإنساني .

يتّضح مما تقدّم أن الاغتراب المكاني للذات هو شعورها بالمشقة وعدم الارتياح الذي ينعكس في ابتعادها ونفورها وإحساسها بعدم الانتماء للمكان وله تأثير واضح في الشخصية، وهذا ما لمسناه بتحول المكان الى أفق ضيق أشعر الشخصيات بالوحدة والألم وعمق إحساسها بالغربة بسبب افتقادها للحب والاستقرار والسلام وتعرضها للتهديد والابتزاز ، وهذا الشعور ظل ملازماً لشخصيات ، المكان ولعل أقسى ما وصلت اليه الشخصية من أشكال الاغتراب في شعورها هو كونها تعيش صراعات وانفعالات داخلية وخارجية تنتهي بها الى حالات اغترابه تزدّد في وعيها وفي منظوقها بألفاظ وعبارات تعكس دلالة الاغتراب المكاني وعلاقته بالشخصية.

الخاتمة :

سعى هذا البحث الى الكشف عن مفهوم التقاطبات المكانية ، واهم الدراسات التي تناولتها وكذلك الوقوف على أنواعها في نص الرواية (درب الزعفران) من خلال ما تضمنته من تقاطبات مكانية ، كما وتناول البحث (أنسنه المكان) التي شكلت ملمحاً واضحاً في نص الرواية من خلال أنسنه المكان ومحتوياته التي شكلها الروائي تشكيلاً جعله انساناً يحس ويعبر عن مشاعره وعواطفه .

مثل الاغتراب المكاني حالة واضحة من الانفصال بين المكان والشخصيات التي تركز بداخلها ممثلاً بشعورها بالنفي خارجه ، وعلى الرغم من أنها ما زالت تحت فضائه إلا أنها عاجزة عن مسابرتها حدائه وبقائها منفصلة على ذاتها .

الهوامش

١- ينظر : جماليات المكان ، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا: ٣٩ .

٢- مشكلة المكان الفني ، يوري لو تمان ، تر : سيزا قاسم: ٦٩ .

٣- م . ن : ٦٩،

- ٤- شعرية الخطاب السردي ، محمد عزالم: ٧٠ .
- ٥- بنية الشكل الروائي ، حسن بحرأوي: ٣٣ .
- ٦- م . ن : ٣٣ .
- ٧- جماليات المكان ، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا: ١٧١ .
- ٨- درب الزعفران : ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٩- جماليات المكان ، غاستون باشلار ، تر: غالب هلسا : ١٧١ .
- ١٠- درب الزعفران : ١٩ - ٢١ .
- ١١- مشكلة المكان الفني ، يوري لو تمان: ٧٣ .
- ١٢- درب الزعفران : ١٤ - ١٦ .
- ١٣- مشكلة المكان الفني ، يوري لو تمان: ٦٣ - ٦٤ .
- ١٤- درب الزعفران : ١٣٦ .
- ١٥- م ، ن : ١٣١ .
- ١٦- درب الزعفران : ٣٧ .
- ١٧- م . ن : ١١٦ .
- ١٨- أنسنة المكان في رواية (هولير حبيبي) لعبد الباقي يوسف ، حسين مجيد حسين ، مجلة قة لأى زانست العلمية ، المجلد : ٣ ، العدد : ٤ ، خريف ٢٠١٨ : ٦٩٨ .
- ١٩- ينظر : الأنسنة في مسرح الأطفال والكبار (دراسة مقارنة) ، تائر هادي جبارة ، دراسات تربوية ، العدد الثاني عشر ، تشرين الاول ٢٠١٠ : ١٧ .
- ٢٠- أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، مرشد أحمد: ٧ .
- ٢١- م . ن : ٨ .
- ٢٢- أنسنة المكان في رواية (هولير حبيبي)، حسين مجيد حسين: ١٠٢ .
- ٢٣- درب الزعفران: ١٣ .
- ٢٤- أنسنة المكان في رواية (هولير حبيبي) ، حسين مجيد حسين: ٧٠٤ .
- ٢٥- درب الزعفران: ٨٣ .
- ٢٦- م . ن : ٤٣ .
- ٢٧- درب الزعفران : ٨٠ .
- ٢٨- م . ن : ١٨١ - ١٤١ .
- ٢٩- درب الزعفران: ١١

- ٣٠- م . ن : ١١ .
- ٣١- أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف ، مرشد أحمد: ٣٠ .
- ٣٢- درب الزعفران : ١٥ .
- ٣٣- م . ن : ٦٨ .
- ٣٤- ينظر: أنسنة المكان ، مرشد أحمد: ٢٦ - ٢٧ .
- ٣٥- م . ن : ٣٢ .
- ٣٦- ينظر: درب الزعفران: ٣١ .
- ٣٧- درب الزعفران: ١٥٢ .
- ٣٨- م . ن : ٤٣ - ١٣٧ .
- ٣٩- م . ن : ٧٨ - ٧٩ .
- ٤٠- درب الزعفران : ٨١ .
- ٤١- م ، ن : ٨٢ .
- ٤٢- شعرية الرواية الفانتاستيكية ، شعيب حليفي: ١٨ .
- ٤٣- شعرية الرواية الفانتاستيكية ، شعيب حليفي: ١٨ .
- ٤٤- قال الراوي ، سعيد يقطين: ٢٥٣ .
- ٤٥- ينظر: الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب ، شاعر عبد الحميد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ٢٠١٢: ٧ .
- ٤٦- الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال للنشر، ط٣، ٢٠٠٦: ٦٩ .
- ٤٧- جماليات المكان، سعيد حوارنية: ١١٤ .
- ٤٨- درب الزعفران: ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٤٩- درب الزعفران : ١٣٤ .
- ٥٠- الاغتراب المكاني لدى المثقف في روايات سعد محمد رحيم بعد عام ٢٠٠٣م، كريم أميري، أفاق الحضارة الاسلامية أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، مجلة علمية نصف سنوية (مقالة علمية محكمة)، السنة ٢٢ ، العدد: ١، ربيع وصيف، ١٤٤٤ هـ . ق ١-٢٦ .
- ٥١- درب الزعفران: ١٤٣، ١٥٤، ١٥٢ .
- ٥٢- درب الزعفران : ٩٨ - ١٠٤ .

المصادر والمراجع

- درب الزعفران (رواية) محسن جاسم الموسوي ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٠
- ١- الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال للنشر، ط٣، ٢٠٠٦م.
- ٢- استراتيجية المكان (دراسة في جماليات المكان في السرد العربي)، مصطفى الضبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٨م.
- ٣- أنسنة المكان (في روايات نجيب محفوظ) مرشد احمد، دار الوفاء، الاسكندرية، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٤- قضية المصطلح وآليات صياغته في النقد العربي الحديث، سعاد طالب، أطروحة دكتوراه ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر، ٢٠١٦ - ٢٠١٧م.
- ٥- الأنسنة في مسرح الأطفال والكبار (دراسة مقارنة)، ثائر هادي جبارة، دراسات تربوية، العدد الثاني عشر، تشرين الاول، ٢٠١٠م.
- ٦- الاغتراب المكاني لدى المثقف في روايات سعد محمد رحيم بعد عام ٢٠٠٣م، كريم أميري، أفاق الحضارة الاسلامية أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، مجلة علمية نصف سنوية (مقالة علمية محكمة)، السنة ٢٢، العدد ١، ربيع وصيف، ١٤٤٤ هـ . ق ١-٢٦
- ٧- بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية)، حسن ببحراوي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠م.
- ٨- بنية السرد (من منظور النقد الأدبي)، حميد لحداني، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، بيروت، ١٩٩١م.
- ٩- تقاطبات المكانية في قصص هواتف الليل لبشرى البستاني، بسام خلف سليمان الحمداني وجعفر أحمد الشيخ عبوش، أداب الرافدين ، العدد: ٦٩ ، ٢٠١٤م.
- ١٠- جماليات المكان، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.
- ١١- شعرية الخطاب السردية، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (دزط)، ٢٠٠٥م.

- ١٢- شعرية الرواية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، منشورات الأختلاف، ط١، ٢٠٠٩م.
- ١٣- الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب، شاعر عبد الحميد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، (د.ط)، ٢٠١٢م.
- ١٤- قال الراوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، ط١، المغرب، ١٩٩٧م.
- ١٥- مشكلة المكان الفنيّ (المكان ودلالاته)، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، عيون المقالات، ط٢، ١٩٨٨م .
- ١٦- المكان والزمان في النص الأدبي (الجماليات والرؤيا)، وليد شاعر نعاس، تموز للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.